مفتاح شخصيته

تقدمت الإشارة إلى قصة الشبه القريب بين خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب فى ملامح الوجه وطول القامة، وأنهما كانا ن التقارب بحيث يشتبه الأمر على قصير النظر وهو يتكلم إليهما، فيخاطب عمر بن الخطاب وهو يظن أنه يخاطب خالد بن الوليد ويلوح لمن يقرأ سيرة الرجلين أن الشبه بينهما يتعدى الملامح والقامة إلى معالم الشخصية وطبائع القوة النفسية، فكلاهما يجوز أن يقال فيه إنه "جندى" بالفطرة، وإن "مفتاح شخصيته" هو السليقة الجندية، فإذا أحرضنا فى أخلادنا كلمة "الجندى" أو الجندى المطبوع لم نجد فى ابن الخطاب ولا فى ابن الوليد صفة لا تحتويها هذه الكلمة فى معنى من معانيها..

وبين الرجلين فارق لا خفاء به فى الخلق والتفكير

لكنه فارق لا يخرج بهام من نطاق هذه الطبيعة، فكلاهما جندى مطبوع على الخلائق الجندية. ولكن ابن الخطاب تغلب عليه، من مزاج الجندى ناحيته الروحية أو ناحية البنيان والتركيب..

وأوضح من هذا أن نقول إن عمر كان جنديا فى أخلاقه الوازعة[1] الحاكمة، وأن خالدا كان جنديا فى أخلاقه الدافع الهاجمة. فى الجنود، كما لا يخفى، هذه الأخلاق وهذه الأخلاق.

ولا ريب أن هذا الفارق بين الفاروق وسيف الله إنما هو قبل كل شىء فارق بين نفسين، أو بين رجلين، أو بين "شخصين" لكن هذا لا يمكن أن يكون فى الوقت نفسه بين "قبيلتين" بين أسرتين وبين نشأتين.. فإن الفوارق بين بنى عدى قبيلة عمر وبين بنى مخزوم قبيلة خالد أن تتجه بالمزاج المتقارب وجهتين متباينتين.

---

(١) الوازعة: يقال "وزعه" أى كفه ومنعه، أو زجره ونهاه.

فبنو عدى - آل عمر- كانوا فى الجاهلية أهل تحكيم ومعرفة بالفصل فى الخصومات، وقد ذاقوا، كما قلنا فى "عبقرية عمر": "طعم الظلم من أقربائهم بنى عبد شمس، وكانوا أشداء فى الحرب يسمونهم لعقة الدم، ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلة عددهم بالقياس إلى عدد أقربائهم.. فاستقر فيهم بغض القوى الظلوم للظلم، وحبه للعدل الذى مارسوه ودربوا عليه.."
أما بنو مخزوم - آل خالد - فكانوا - على خلاف ذلك أهل حرب وسطوة وأصحاب ثراء ورخاء، وكانوا فى الجاهلية موكلين بالخيل والسلاح، معتزين بالعتاد التليد، والعدة والعديد.

وكان ثراؤهم يملى لهم[1] فى أسباب الترف والنعيم، كما تملى لهم مزية فيه مزية أخرى من المزايا التى تكلفها للقبيلة عزة السلطان وطول العهد بالحضارة والرئاسة، وتلك المزية هى جمال النساء.

فقد كان يقال إن "المخزوميات" رياحين العربب.

وكان فى رجالهم الغزل الذى أخرج منهم شاعره الأول عمر بن أبى ربيعة، بل أخرج منهم غزلين ظرفاء حتى فى النساك والأتقياء..

جاء فى كتاب الأغانى عن أبى السائب المخزومى" "أنه كان رجلا صالحا زاهدا متقللا[2] يصوم الدهر، وكان أرق خلق الله وأشدهم غزلا. فوجه ابنه يوما يأتيه بما يفطر عليه، فأبطأ الغلام إلى العمة. فلما جاء قال له: يا عدو نفسه، ما أخرك إلى هذا الوقت؟.. قال: جزت بياب بنى فلان فسمعت منه غناء فوقفت حتى أخذته، فقال: هات يا بنى، فواله لئن كنت أحسنت لأحبوتك[3]، ولئن كنت أسأت لأضربنك فاندفع يغنى بشعر كثير:

---

(١) يعلى لهم: يطيل ويوسع لهم.

(٢) متقللا: يعيش على القليل من الزاد.

(٣) لاحبونك: لاكافئنك.

ولما علمـــوا شـــغبـــا تبـــينت أنه

تقطع من أهل الحـجـاز عـلائقى[1]

فـلا زلن حسـرى ظلعـا لم حملنهـا

إلى بـلد ناء قـليل الأصـــــادق[2]

"فلم يزل يغنيـه إلى نصف الـليل. فـقالت له زوجتـه: يا هذا، قـد انتصف الليل وما أفطرنا. قال لها: أنت طالق إن كان فطورنا غيره. فلم يزل يغنيه إلى السـحر. فلما كان السحـر قالت زوجته: هذا السـحر وما أفطرنا، فقال: أنت طالق إن كـان سحورنا غيـره. فلما أصبح قال لابنه: خـذ جبتى هذه وأعطنى خلقك[3] ليكون الحباء فضـل ما بينهما[4]. فقال له يا أبت.. أنت شـيخ وأنا شاب، وأنا قـوى على البـرد منك. قال: يا بنى.. مـا ترك صوتك هذا للبرد على سبيلا ما حييت" بقية كافية لبيان مكان الغزل من نساك بنى مخزوم، فضلا عن الشعراء والظرفاء.

وندع القبيلـة إلى الأسرة فيتراءى لنا فى النـظرة الأولى ذلك الاختلاف الذى لا بد منه بين معيشة الخطاب ومـعيشة الوليـد، أو بين معيـشة الرجل الكادح لنفسـه الخشن فى ملمسه، وبين مـعيشة الرجل المترف الفـخور بالملل والبنين، والجاه المكين.

لكنه مع هذا فرق فى المعـيشة لا يتغلغل إلى بواطن الطبـاع. إنما الفرق

---

(١) شغبا: منهل بين مصر والشام، والعلائق: جمع علاقة.

(٢) ظلعا.. الخ، ظلع: جـمع ظالع، وهو الذى يعرج ويغـمز فى مشيه، وجسـرى جمع جسير وهو المتـعب الذى أصابه الإعياء، والاصادق جمع الجـمع لكلمة حسرى.. الخ" عن الإبل التى حملت المحـبوبة، وتعبـير الشاعـر "فلا زلن حســرى.. الخ" دعاء على الإبل بأن يصيبها الأعياء والظلع لأنه حملت محبوبته إلى بلد ناء قليل الأصدقاء.

(٣) خلقك: أى ثوبك الخلق، و"الخلق" هو القديم الرث.

(٤) الحباء: العطاء الذى تعطيه من غير عوض.

المتغلغل إلى بواطن الطباع، بل إلى أعمق أعماقها، هو فرق البنية العصبية بين أبناء الخطب وأبناء الوليد.

فمن أوصاف أبناء الوليد عامة ينكشف لنا "قلق عصبي" في هذه الأسرة قد تطرف حد التطرف في أفراد منها، واعتدل بعض الاعتدال في آخرين..

فعمارة بن الوليد هو الذي بلغ منه الاضطراب أن يراود امرأة في محضر زوجها[1]، وأن يجترئ على حرم النجاشي بالمغازلة، ثم يجترئ بالتحدث عن هذه المغازلة حديث الفخر والمباهاة، ثم ينطلق مع الأوابد[2] في الآجام بفعل السواحر كما قيل، وهو قول لا يخفى مدلومة في لغر العصر الحديث..

وذكر عن خالد كما ذكر عن أخيه الوليد أنه كان يتفزع في نومه. فذاك أثر من آثار "أعصاب الأسرة" كلها على ما هو واضح من جملة المشاهدات في أبنائها، وإن كان يجمع بهم في حين، ويكبح في حين..

وقد كان خالد يغضب فينتقع لونه[3] كما جاء في كتب الفتوح من حديث المغاضبة بينه وبين أبي عبيدة بعد تسليم دمشق ومصالحة أهلها. وقد كانت علة المغاضبة أبن أبا عبيدة يحسب التسليم صلحا وخالدا يحسبه غلبا يحق فيه على المغلوب جزاء السبي والاغتنام[4] والقصاص.

وكانت في خالد حيدة يملكه آونة بعد آونة. وفي القليل الذي بلغنا إشارة إلى الكثير الذي لم يبلغنا. فقد غاضب أبا عبيدة وغاضب عبد الرحمن

---

(١) هي زوجة عمرو بن العاص، وأرجع إلى القصة في ص٣٢ وهامشها.

(٢) الأوابد: الوحوش تعيش بعيدة عن الأنس.

(٣) ينتفع لونه: يتغير. مثل "يمتقع" بالبناء للمجهول.

(٤) الاغتنام: الحصول على الغنيمة.

ابن عوف عمار بن ياسر. وقال له عمار وقد سمع منه ما ساءه: "لقد عممت ألا كلمك أبداً". فأصلح بينهما النبى عليه الصلاة والسلام وهو يقول لخالد: "يا خالد.. مالك ولعمار.. رجل من أهل الجنة قد شهد بدرا"، ثم يقول لعمار: "إن خالد يا عمار سيف من سيوف الله على الكفار".

فهذا الفارق بين الأسرتين، وذلك الفارق بين القبليتين، مفسران صالحان لاختلاف لونى "الجندية" فى شخصية الرجلين العظيمين. عمر إلى الجندية الموزوعة، وخالد إلى الجندية المدفوعة[1]، وعمر إلى الشظف المختار، وخالد إلى المتاع المباح.

ولا يرد إلينا العجب بعد هذا أن يكون شعور خالد بالمرأة هو شعوره ذاك الذى أهدفه[2] للملاحة والمؤاخذة مرات، وجعل من مؤاخذيه أرغب الناس فى عذره والثناء عليه، ونعنى به الخليفة الصديق.

وقد كان هذا الشعور يلازمه ما يلازم أبناء الثراء من حب الرفاهية وبهجة الحياة. فلم يفرغ من الحرب قط إلا انقلب منها واد ظليل فى صحبة زوج محببة إليه. فقضى فى وادى الوبر باليمامة أيام الدعة بين زوجيه بنت مجاعة وبنت المنهال. وقضى فى دومة الجندل أيام الهدأة بين الوقائع فى صحبة ابنه الجودى الحسناء، واستطاب المقام بحمص بعد العزل وآثره على المقام بالحجاز. وأغضب الفاروق لأنه "كان يدخل الحمام فيتدلك بعد النورة بتخين معجون بخمر[3]"، فلما لا له الفاروق فى ذلك قال: إنا قتلناها فعادت غسولا غير خمر[4] ثم قال يخاطب عمر:

---

(١) الموزوعة والمدفوعة: إشارة إلى ما سبق أن قاله المؤلف فى ص١٦٣عن الإختلاف الوازعة، والأخلاق الدافعة. (٢) أهدفه: جعله عرضه..

(٣) النورة: حجر الكلس، ثم غلبت على إخلاط تضاف إلى الكلس من زرنيخ وغيره وتستعمل لإزالة الشعر. (٤) الغول: الماء الذى يغتسل به.

سـهـل أبا حـفـص فـإن لديـننا

شـرائع لا يـشـقى بهن المسـهل

وهل يشبـهن طعم الغـسول وذوقـه

حـميـا الخمـور والخمـور تسلسل[1]

وفى كل أولئك هو سليل حق لبنى مـخزوم ولبـيت الوليد، وترجـمان صدق لتلك البنية العصـبية المتفززة[2] التى تنجح به إلى المتعة فى أيام الدعة كما تنجح به إلى البطن فى مقـام الجلاد والعناد، وتفسر لنا الجندى الذى تميل به القوة الحيوية تارة إلى لقاء الحسان، وتارة إلى لقاء الأقران

وهو نفسه قد أبان عن طويته كلها غيـر عامد حين قال: "ما ليلة يهدى إلى فيها عروس أنا لها محب، أو أبشـر فيها بغلام أحب إلى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو، فعليكم بالجهاد" . .

فالحرب عنده اشتهاء، والعروس عنده غاية المتاع.

والحرب فى رأيه حسناء تشتهى أبدًا، ولا تشب كـصاحبه الزبيدى تكون فى مبدئها "فتية تسعى بزينتها لكل جهول[3] ثم تصبح:

شـمطـاء جـزت شـعـرهـا وتنكرت

مكـروهة للـشم والتـقـبـيل

وأيام كانـت متعـته بالمرأة الحـسناء أو بالمقام الوثيـر فهى مـتعـة القوى اليقظان، وليست بمتعة الضعيف المستنيم.

---

(١) حميا الخمر: شدتها وحدتها، والخمر المسلسلة: اللينة التى تتسلسل فى الحلق إذا شربت.

(٢) المتفززة: النشيطة المتوقدة.

(٣) أصل البيت: الحرب أول ما تكون فتية تسعى بزينتها لكل جهول.
وهو يشبه فـيها الحرب فى أولهـا بفتاة تجتذب الجـهلاء بزينتها، حتى إذا تكـشفت من إيلاتها أصبحت عجوزا شمطاء لا نشتهى.

هى متعة المسافر الذى يستريح إلى الواحة لينقض عنه الجهاد ويتزود منها لجهد جديد، وليست متعة المتهافت الذى يتوق إلى مهاد الراحة لينغمس فيها ويستكين إليها ولا يفيق من سكرتها بل هو يحب المتعة لأنه يحب الجهاد، فإذا طالت عافها وبرم بها واجتواها[1]، وأنف أن يقنع بها ويستمرئها.. فلم يطق سنة واحدة بالحيرة بين حروب الروم، وسماها "سنة نساء" لأنها كانت سنة راحة من العناء.. مع أنها كانت راحة المتربص المتوفز[2]، وكانت رائحة يتخللها وضربات من هنا وهناك..

وهكذا كان يأخذ من المتعة بأيسر المقادير، ليأخذ من الشدة والبأس بأوفر المقادير..

لأن طبيعته القوية هيأته للشدة والبأس قبل كل شيء، وما بقى الطبيعة للرياضة فقد أتمته الرياضة بعزيمة الجبابرة التى تلين: باستمرار مالا مراء فيه[3] من طعام وشراب، وبأكل الضب وشرب السم ومطاولة الركوب أياما بعد أيام[4] لا جرم يكون أكبر الأسى لتلك النفس فى ساعة الموت أنها تموت على الفراش أو على حد قوله كما يموت البعير: "لقد طلبت القتل فى مظانه، فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى.. ولقيت الزحوف وما فى جسدى شبر إلا فيه ضربة بسيف، أو رمية بسهم، أو طعنة برمح، وها أنا أموت على فراشى حتف انفى[5] كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء"..

وأقرب شيء أن يلاحظ فى سيرة خالد - من نشأته إلى وفاته - أن هذا الولع كله بالحرب لم يكن ولعا بالشر والسوء، ولا ولعا بالضغينة والبغضاء،

---

(١) اجتوها: كرهها. (٢) المتوفز: المتربص المتحفز.

(٣) مراءة: يقال "مرأ الطعام" أو مرئ" أى ساغ، فهو مزئ. واستمراء الطعام: استساغته.

(٤) ارجع إلى ص ٤٢.

(٥) مات حتفه أنفه: أى مات على فراشه بلا ضرب أو قتل، والحتف: الهلاك.

فكانت عداواته كلها عداوات جندى مقاتل، ولم تكن عداوات مضطغن[1] آثم.. ولم يعرف قط عنه أنه حمل الضغينة لأحد من الناس. ولو أنه اضطغن على أحد لكان أحق الناس أن يضغن عليه عمر بن الخطاب، لأنه عزله وشطر[2] ماله وأبقاه فى العزلة سنوات، ولكنه لم يعمل عملا واحدا ولم يقل كلمة واحدة تدل على ضغن عليه. وقد سامحه والتمس له المعذرة، وعلم أنه أراد الله بما حاسبه عليه، وكان أشد ما قال فيه: "الحمد لله الذى قضى على أبى بكر بالموت، وكان أحب إلى من عمر، والحمد لله الذى ولى عمر، وكان أبغض أبى بكر ألزمنى حبه".. وربما ذكره وهو غاضب فسماه "الأعسير ابن أم شملة" فكانت هذه الكلمة أدل على التحبب منها على الكراهة، ولاحت أنها كلمة المغلوب فى لعبة لا فى غرض عظيم يقعد ويقيم.

وقد يمكن كثيرا أن تسمع هوة البعد بين الولع بالحرب والولع بالشر والضغينة، وإنها الأولى أن تتسع بينها حيث تكون الحرب ميدان التضحية والفداء فى سبيل الغيرة القومية، أو فى سبيل الإيمان والضمير، وحيث يكون الرجل قد تربى على مراسلها[3]، وطبع فى نفسه على مزاج يألف القتال ولا ينفر منه، وليس فى المجتمعات الإنسانية التى تصبح الحرب فيها ضرورة من ضرورات الحياة والشرف باعث إلى النفرة من القتال، ولن تزال القدرة على الحرب شرفا وشجاعة إلى آخر الزمان، وما دام فى بنى الإنسان من يحمل السلاح للعدوان والبغى والتلصص والمراء، فيتقيه بنو الإنسان بمن يحمل السلاح للحق والعقيدة والإنصاف.

وعلى كثرة من قتل خالد فى حروبه ولم يكن يقتل أحدا قط هو يشك فى صواب قتله وإن أخطأ وجه الصواب. فالقتلى الذين طاحت بهم سيوف

---

(١) مضطغن: حاقد. (٢) شطر ماله: قاسمه ماله فأخذ نصفه وترك له نصفه.

(٣) مراسها: ممارستها.

الجلادين بـأمره فى "نهر الـدم" كانوا يستـحقـون عنده القتل قـربانا إلى الله وجزاء لهم على عناد الشرك والإصرار.

أما إذا شك فى صوابه فـهو يستكثر المساءة إلى رجل واحـد فضلا عن الجحـافل والقبائل، ويسـبق إلى الرفق رجلا كأبى عبيدة عرف طوال حـياته بالرفق والرحمـة والأناة. فيقول له وقـد تناول رجلا بشىء: "إنى لم أرد أن أغضـبك، ولكنى سمـعت رسول الله ﷺ يـقول: إن أشد الناس عـذابا يوم القيامة أشد الناس عذابا للناس فى الدنيا"..

فهو مطبوع على عداء الجندى المقاتل وليس بالمطبوع على عداء الدسيسة والشر فى صغائر العيش وسفاسف الأمور.

كذلك لا يفهم من ولعه بالحرب على هذه الصـفة أنه كان مبتلى بذلك الولع الأهوج الذى يبتلى به من لا يعقلون هجومـا إلا كهجوم الريح أو فرار إلا كفرار الحيوان.

فـقد كـان يقدم عن علم بمواضـع الإقدام، ولذلك لم ينهـزم قط وهو مسئول عـن الهزيمة.. وإنما هزم فى حنين مرة واحدة وهو مسـئول عن اليوم كله كما قدمناه.

أمـا إذا وجب التراجع فـالجشـاعة كل الـشجـاعة عنده أن يؤمن بهـذه الحقـيقة، وأن يدبر أمـر التراجع بعـد ذلك على النحو الذى يصـون الكرامة ويصون الدماء، ويكون المخدوع المغلوب فـيه هو الذى أمكن التراجع من بين يديه، وقد كـان فى وسعه أن يـبطش بالمتراجعـين جميـعا قبـل أن يفلتوا من أوهاقه[1] المطبقة عليهم. هذه هى الجندية البصـيرة بمزاياها فى الكفة الراجحة والكفة المرجوحة، أهذه هى الجندية الغالبة أبدا وهى فى إقدام أو فى إحجام.

---

(١) أوهاقه: الأوهاق جمع "وهق" وهو الحبل فى أحـد طرفيه انشوطة يطرح فى عنق الدابة أو الإنسان حتى يؤخذ.

ولقد كادت هذه الطبية الجندية أن تحيط بكل ما رزق من طبيعة حية. فمن أقواله: إن الجهاد شغلني عن تعلم القرآن، أو قراءة كثير من القرآن..

وعذره في ذلك يحين قال ذلك المقال أنه لم يقض في ملازمه النبي غير أوقات جد قصار، لأنه شغل السنوات الثلاث التي قضاها مع النبي بعد إسلامه وهو بين السرايا والغزوات.

وقد كان يخطب ويقول الأبيات من الشعر والرجز على مثال ما قدمناه. ولكنها الخطب والكتب التي يستطيعها على مثال ما قدمناه. ولكنها الخطب والكتب التي يستطيعها العربي الفصيح الناشئ في كنف الفصحاء، ثم هي كلها ملحقة بوظيفة الجندية فيه، فإذا قال كلمة أو كتب سطرا فكأنما يكتب بحمام لا ببراع.

كتب إلى مزاربة فارس فقال: "الحمد لله الذي فض ملككم، وأذل عزكم، فإذا أتاكم كتابي هذا فابعثوا إلى الرهن واعتقدوا منا الذمة[1] وأجيبوا إلى الجزية، وإلا الله الذي لا إله إلا هو لأسيرن إليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا"..

وخطب في المسلمين وقد تهيبوا طروق المفازة من العراق إلى الشام فقال: "لا يختلفن هديكم، ولا يضعفن يقينكم، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية، والأجر على قدر الحسنة، وأن المسلم لا ينبغي له أن يكترث لشيء يقع فيه مع معونة الله له". ويسمع الكلمة فيردها بالجواب المسكت كأنه يلتقي ضربة سيف بضربة سيف، كما قال حين سمع صائحا في المعسكر يصيح: ما أكثر الروم وأقل المسلمين..

---

(١) اعتقدوا منا الذمة: يقال: "اعتقد الأمر" أي صدقه وعقد عليه قلبه. والذمة العهد والأمان والكفالة، وكان المسلمون يعاهدون أهل الذمة على أن يؤمنوا أموالهم وأعراضهم ودينهم.

فلم يكن أسرع منه أن يقول: "بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين. إن الجيوش إنما تكثر بالنصر وتقل بالخذلان".

فكل كلمة منه فإنما هى ضربة سيف فى صورة حروف ونبرات ومن الملاحظات الجديرة باستقراء علم النفس أنه على التشابه بينه وبين عمر كان جانب فكاهة وإن كانت خشنة غليظة، ولم يكن فيه هو مثل هذا الجانب فى عمله أو كلامه.

وقد كان الأدنى إلى الظن - عند النظرة الأولى - أن تنمو الفكاهة مع الرجل الذى نشأ فى مهد اليسار[1]، ولا تنمو مع الرجل الذى على العشر أو اليسر القليل.

لكنها النظرة الأولى ولا تنعدها.

لأن الإعسار فى الواقع أعن على الفكاهة من اليسار، ومن هنا كان ولع الناس بالفكاهة فى أيام الحروب وأزمات الشدة ومظالم الاستبداد، كأنها رب من التعويض والمقابلة، ولا غرابة فى ذلك حيث ننظر إلى منشأ الفكاهة فى جملتها، فهى على أكثرها وليدة المفارقة بين الحالات وليست وليدة الموافقة الموائمة. وما أكثر المفارقات فى حياة المعسرين.

ولعلنا نبلغ مقطع القول[2] فى هذه الملاحظة حين نقول: إن الموسر أقدر على التسلية والمعسر أقدر على الفكاهة وبين التسلية والفكاهة فرق غير مجهول.. رحم الله خالدا.. إنه كان جنديا كفى!

لكنه قد عوض فى جانبه الواحد عن جوانب عدة فى الآخرين، لأنه قد رزق فى طرازها الأول، ورزق منها وحده ما يكفى عشرة من جنود التاريخ المبرزين.

---

(١) اليسار: الغنى: والإعسار: الفقر.

(٢) مقطع القول: القول القاطع.